رواية الشقيقتين

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

٢

لله بيروت ما اجمل موقعها وابهج مرآها! لما ترسو السفينة بالغريب ازاءها لاول مرة فلا جرم انَّ محاسنها تخلب قلبهُ وتسبي مشاهدُها لبَّهُ

وكان البارون دي لَيْنس مع كثرة ما رآهُ من البلاد لا يتمالك من العجب لدى نظره هذه المدينة الفائقة. ذات المناظر الشائقة. تدخل في البحر كانها تقتحم أهوال الدأماء. وتتوسَّد جبالًا تأتزر قممها بالسحاب وتتمُّ بالثلوج الغراء. دورها محكمة البُنيان. واشجارها باسقة الافنان. وهي تجمع بين مرافق البرّ والبحر والجبل والسهل

غير انَّ افكار البارون لم تَرُق بعد كي يلتهيَ بمحاسن بيروت ولما كانت خواطرهُ كأنها متَّجهةً الى مصيف سعادة القنصل ب . ما لبث ان ركب العربة في غد ذلك اليوم ونزل عند الضحى امام الدار الموصوفة آنفًا. فاسرع لاستقباله اهل البيت وتحفَّوا به وبالغوا في اكرامهِ حتَّى نسي بعد هُنَيهة كلَّ عناء السفر

والحقُّ يقال انَّ منزل السير ب. كان يجمع كلَّ اسباب الهناء والراحة واصحابهُ ممَّن يراعون حقوق الضيف وهم علاوةً على ذلك متَّصفون بكل ما يجمّل الناس من الفضائل الاهليَّة والآداب الانسانيَّة

فما رسخت قدمُ البارون في هذه الدار حتَّى انتعشت روحهُ وشعر بعودة قواهُ بين اصحاب لم تَشُب اخلاقهم شائبةٌ ولم يعكّر صفاء مودَّتهم كدرٌ. فشتَّان بين ما وجدهُ عندهم من الأُنس ورغد العيش وبين ايَّامه السابقة في عاصمة اليونان اذ كانت تحدق به هموم رتبته فلا يرى مَناصًا من مُخالطة قومٍ أعماهم الجَشَع واستفزَّهم حبُّ الذات. فكان يتنسَّم في وسط الجبال الريح الطيّبة وهو يتهنَّأ بنسيم الحريَّة

ثمَّ اخذ يتجوَّل بصحبة القنصل في الانحاء المجاورة لمنزله وربَّما كانا يتسنَّمان صَهَوات الخيل فتارةً يطويان البيد واخرى يهبطان الى الوديان او يسميان في الجبال للصيد والقنص. ونُجمل القول ان البارون كان يصرف حياتهُ في الهناء بعيدًا عن ضوضاء العالم ومن مخالس المُسامرات الباطلة التي لا تجدي القلب راحةً

الّا انّ ما زاد البارون بسطاً وانشراحاً انما كان اجتماعهُ مع اخيف عائلة القنصل ب . في طرفَيْ النهار فينبذ عندئذٍ كلّ تكلُّف ويطلق لعواطفهِ العنان ويقضي بحديث اهل الدار ساعات يعدُّها من اهنإ زمن حياتهِ

وكان منذ اوّل يوم وصوله شعر قلبهُ مائلاً الى ابنتي القنصل لما وجد فيهما من السجايا الفريدة وهما شُعْبتا اصلٍ واحد نتقتْهما أمومةٌ في اليوم ذاتهِ . واسم الاختين سوسنّة ووردة لم يكد عمرهما يُربي على الثماني عشرة سنة وهما مع ذلك تتشابهان قدًّا وحسناً

امّا مولد الفتاتين فكان في ارض المغرب لكنّهما نمتا وترعرعتا في الشرق فجمعتا بين خصال الخافقَيْن . فكنتَ ترى فيهما سذاجة البلاد الشمالية مُدْمَجةً بشيء من ترف اهل الشرق ورزانة طباعهم فتمتزج بشخصيهما اوصاف كلا الصقعين امتزاجاً رائعاً

وكانت انّهما من السيدات العاقلات الجمّلات باحسن الصفات قد ارضعتهما بلبانها واشربتهما منذ الصِغَر روح التُقَى والحشمة فنشأتا في حَجْرهما ومُهدتا في كنفها وسترها ودرجتا من وَكْرها وهما تألفان الدار الوالدية لا ترضيان لها بديلاً وكادتا لا تعرفان من العالم الّا اسمهُ . فكان من يراهما يستدلُّ بصفاء عيونهما على طهارة قلبهما

ويُجمَل القول انّ سوسنّة ووردة كانتا تحققان بشخصيهما ما افتتحنا بهِ كلامنا عن ائتلاف الاخوات الشقيقات . والحقُّ يقال ان الاخوّة كانت تأنّست منهما بلاكين ارضين فاخرجتا الى حيّز الوجود ما تخيّلهُ القصاصون في رواياتهم المختلقة ذات العلوّ البيّن عن امر التوأم وما يوجد بينهم من العلائق الوثيقة

ومن خواصّ الابنتين المذكورتين تشابههما بالخلقة والقدّ والصوت كتشابهِ الذرّة بالذرّة لم تفرز بينهما العين اللهمّ الّا عين والدتهما امّا باقي اهلهما فاضطُرّوا الى ان يفرقوا بين النجلتين زمناً طويلاً بعلاماتٍ خاصّة لئلاّ يقع التباسٌ بينهما

وبقينا على هذه الحال الى السنة الثانية من عمرهما حيث بدا في وجههما بعضُ تباين وذلك بانّ لون سوسنّة جعلَ يضرب الى البياض وشعرُها الى الشقرة بينما اضحت وردة مزدهرة اللون قانئة الشعر كأنّ الطبيعة نوت فيهما تطبيق المسمّى على الاسم . وجارت الامُّ الطبيعة بأن كستهما ثياباً تشعر باسميهما وخلقتيهما

ولا غروَ انّ ما سبق لنا من الوصف لخَلْق الشقيقتين وخُلقهما وقع في قلب البارون دي لَيْنس موقعاً اثيرًا . وما زاد على ميلهِ نحوهما ما طُبع هو نفسهُ عليهِ من لين العريكة

والهمم العالية . وغا اعتباره للاختين لما رآهما تتباريان فضلاً وصلاحاً لا تعكر بينهما صفاء الوداد شائبةٌ فكان يشبههما بزنبقتين نشأتا من فرع واحد تزدهيان حسناً وتتكاتفان ولاء

وفي واقع الحال كانت سوسنة ووردة مرتبطتين ارتباطاً غير منفصم تتشاطران الافراح والاتراح وتتبادلان الافكار والعواطف فتخالهما نفساً واحدة في جسدين

وكان مع ذلك في طبعهما بعض اختلاف فان سوسنة كانت كثيرة التصوُّن بينما كانت وردة فكهةً طيبة النفس . فكانت من ثم تميل سوسنة الى التخلي والانفراد وربما فكرت ان تلبس الثوب الرهباني في جمعية الراهبات اللواتي ربَّتها صغيرة وهذَّبنها فتاة وأفشت بسرها لاختها وردة . بيد انَّ هذه استولى عليها الكآب وصرَّحت لاختها ان لا سبيل للفراق مطلقاً فلم تَعُد سوسنة الى الكلام بهذا الصدد

امَّا البارون دي لينس فمع ما وجده في نفسه من الانعطاف الى الاختين كان يشعر قلبهُ مائلاً الى وردة اكثر منهُ الى سوسنة يسرهُ منها طلاقة لسانها وتوقُّد ذهنها ودعابة طباعها فضلاً عن سذاجة اخلاقها واستقامة قلبها

فمذ ذاك الحين لم يَعُد يرى مانعاً لأن يتأمَّل لانهُ كان وجد المرأة الفاضلة التي يصفيها السر الكريم ويؤثرها على قيمة اللآلئ . ولم يلبث اعتبارهُ لخصائل وردة ان يتحوَّل الى مودة صادقة وحب متين . ولما انتهى بعد شهرين زمنُ رخصته فان وقت رجوعه الى اثينة صرَّح الى القنصل بنيَّته وخطب منهُ ابنتهُ وردة . فبعد فحص الامر وعرضه على الفتاة لم يرَ المسيو ب . بُدًّا من الاجابة الى طلبته

٣

وكان خريف تلك السنة غزير الامطار فترطَّب من جرَّائها هواء السواحل امَّا الجبل فكانت اوراق اشجاره اخذت بالانتشار وصار برده ناطفاً فاسرع اعيان بيروت ويارحوا ربوعهم الصيفية منحدرين الى السهول يتنسمون هواءها المعتدل ويباشرون اشغالهم المألوفة . فعادت المدينة الى ما كانت عليه من الحركة قبل فصل الصيف

وكانت عائلة القنصل ب . رجعت الى بيروت فحين رجع خلَّت في دار القنصلية عند رأس المدينة وهو منزل رَحب كثير الثروة تُحدق به حديقة غنَّاء ذات زهور واشجار باسقة

وكان هذا البيت عادةً ذا هدوء يرتاح فيه اصحابهُ الى السكينة بيد انَّك منذ بضعة

ايام كنت ترى فيه حركة غير مألوفة . وما ذاك الا لإعداد رتبة الزيجة المنوية

ولا غرو انّ الاختين كانتا اوّل من نشط للعمل وعُني بتجهيز لوازم هذه الخطبة . الّا انّ وردة كانت اقلّ اهتمامًا في الامر من اختها . فلا تزال على طبعها فكهةً دَعِبة لا يكدّر صفاء قلبها قلقٌ كأنّ الامر لا يهمّها بل يعني غيرها بينما كانت سوسنة تزيد رصانةً وتصوُّنًا

هذا ولا يخالجنّ فكر احد ان خفّة الطباع كانت غالبةً على وردة تسير الى الزواج وهي لا تدري بما ستتكلّف فيه من العناء . وبالحري انما كانت أعلم ممّن سواها انّ تحت الزهر شوكًا لا يُقاسي ألمَه الا من كان قويّ النفس ذا حزم وجدّ . وعليه فكانت الفتاة كثيرًا ما تختلي وحدها في غرفتها تُعدّ ذاتها لهذا الاقتران طالبةً من الله ان يزين قلبها بما يقتضيه سرّ الزواج من الصفات والفضائل ويجعل هذا المشروع يمون الطالع سعيدًا موافقًا لارادته عزّ وجلّ

وكانت امّ وردة قد استدلّت في مدّة الشهرين الاخيرين بمجرّد النظر الى ابنتها على ما يخامر قلبها من الافكار الخطيرة فانتهزت هذه الفرصة لتمهّد لها تلك الطريق الوعرة وترشدها في سواء السبيل

امّا سوسنة فكان حدث في نفسها في المدّة الاخيرة تغيير يُذكَر . وذلك انها كانت في بادئ الامر تلقّت خبر خطبة اختها بفرح عظيم . ولكن لم تمرّ عليها ايام قلائل حتى غشي قلبها بعض الحزن لم يمكنها ان تستره عن اعين اختها . فلحظت منها ذلك وردة وجعلت تسعى في ازالة كربها ببشاشة وجهها وفكاهة طباعها . فلم يُجدِها فعلُها نفعًا . ومذ ذاك الحين لم يَعُد هذا القلبان على ما ألفاه من الوداد والمخالصة (ستأتي البقية)

شتّى

آثار بيروت القديمة

قد اخبرنا سابقًا (ص٩٢) ما اكتشفهُ الدكتور جول ورفيه احد اساتذة مكتبنا الطبّي من الآثار القديمة في جنوبي بيروت بين وادي الشويفات ونهر الغدير . والآن علمنا بمزيد السرور انّ العلّامة المذكور لا يزال مواصلًا لأبحاثه الخطيرة والنجاح موفّق لمساعيه الطيّبة . وقد اكتشف عاديّات كثيرة يرتقي عهدها الى القرني الخامس والسادس قبل المسيح لمّا